اللفظ والمعنى عند ابن قتيبة وعبد القاهر الجرجاني

أما ابن قتيبة (ت 276هـ) :-

فقد كان من الذين يفصلون فصلا حاسما بين اللفظ والمعنى ، ومن الذين يرون مجيء المعنى الحسن في اللفظ الردئ ، بعد أن قسم الشعر على أربعة اضرب : ضرب حسن لفظه وجاد معناه ، وضرب حسن لفظه وقصر معناه ، وضرب جاد معناه وقصر لفظه ، وضرب قصر فيه اللفظ والمعنى ... .

ومن هذه القسمة التي استوفى فيها ابن قتيبة جميع الممكنات يبدو ان ابن قتيبة قد تأثر ببيئة الفقهاء فجعلته يريد من المعنى أن يكون حكمة أو قولا صالحا ينتفع به الناس ، ويتضح ذلك من خلال الأمثلة التي اختارها للضرب الذي جاد معناه وحسن لفظه ومنها :-

أيّتُهَا النّفْسُ أجْمِلِي جَزَعَا إنّ الّذي تَحْذَرينَ قد وَقَعَا

وكذلك يتضح موقفه من هذا الأمر من خلال الأمثلة التي اختارها للضرب الذي جاد معناه وقصرت ألفاظه :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالحُ

كما أن ابن قتيبة لا يرضيه المعنى الشعري الذي ليس فيه فكرة توجيه وإرشاد لذا يقول في هذه الأبيات :-

فلما قضينا من منى كلّ حاج ومسح بالأركان من هو ماسحُ
وشدّت على حدب المطايا رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيِّ الأباطحُ

أنها (أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع) ، غير أنه ليس تحتها معنى مفيد ، ويبدو

أن خير الشعر لدى ابن قتيبة هو المعنى النافع المفيد الذي يؤدى بصياغة قوية متماسكة .

أما ابن طباطبا (ت 322هـ) :-

فلم يخرج عن دائرة الفصل بين اللفظ والمعنى إذ قال : (وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها ، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض ، وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه ، وكم معرض حسن ، قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه ... وكم من حكمة غريبة قد ازدريت لرثاثة كسوتها ولو جليت في غير لباسها ذلك لكثر المشيرون إليها) .

ومن هذا النص يتضح لنا ان ابن طباطبا يفصل بين اللفظ والمعنى ، ومقتضاه أن المعنى يوجد ثم تجيء الألفاظ لتدل عليه ، وربما قصرت هذه الألفاظ في الدلالة غير أن المعنى باقٍ كما هو فمن الأولى أن تجيء الألفاظ مشاكلة للمعاني .

أما قدامة بن جعفر (ت 337هـ):-

فقد وقف عند هذه القضية ، وفصل بينهما منذ أن عرف الشعر بأنه (قول موزون مقفى يدل على معنى) .

وكذلك قال أيضا (المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة) .

يبدو أنَّ قدامة يرى بمقول ان المعاني معروضة للناس وإنما الفضل لمن يمنح هذه المعاني الصورة التي تصير بها شعرا .

أما عبد القاهر الجرجاني (ت 470هـ) .

ان قضية الفصل بين اللفظ والمعنى بقى قائما لدى النقاد والبلاغيين العرب إذ نجدهم يجعلون للألفاظ صفات وللمعاني صفات أيضا ، ويدعون الشاعر إلى أن يلائم بين معناه ولفظه ، حتى جاء عبد القاهر الجرجاني وعاب الذين يقدمون الشعر لمعناه أو للفظه ، أي أنه أنكر قضية الفصل بين اللفظ والمعنى .

وقد يوحي عناية عبد القاهر بالمعنى بأنه منحاز إلى جانب المعنى دون اللفظ وهذا الاعتقاد صحيح من جهة وخاطئ من جهة أخرى ، ذلك أن عبد القاهر لا يقصد بالمعنى

المعنى العقلي المنطقي وإنما يقصد به المعنى الشعري المتولد من الصياغة ، فهو قد اهتم بالمعنى مع اهتمامه بالصياغة وذهب إلى أن الألفاظ خدم للمعاني وأوعية لها فهي تتبعها في حسنها وجمالها وقبحها ورداءتها .

أي إن للألفاظ وظيفة معينة عليها أن تؤديها وإلا فلا قيمة لها في ذاتها على أن الألفاظ تتحدد قيمتها بمقدار ما توحيه من داخل الصورة المركبة .

والملاحظ ان عبد القاهر قرأ عبارة الجاحظ كما قرأها كل مثقف وخرج بنتيجة من هذه العبارة ، أن المعنى يشبه فضة الخاتم وصنعة الخاتم تشبه اللفظ والتأليف ، ويخرج ناصف من هذه النتيجة ما يزال هناك انفصال بين المعنى وطريقة التعبير عنه بين ما تقوله وكيفيه قوله أو أدائه .

وقد وازن عبد القاهر بين اللفظ والمعنى إذ يقول الدكتور إبراهيم سلامة (لم يغب عن عبد القاهر حجة واحدة من هذه الحجج – يقصد حجج أصحاب اللفظ – وقد نصب نفسه لدحضها والرد عليها وإرجاعها إلى ما يريد من نصرة المعنى ، فهو يرى أن الشأن كله للمعاني وأن الألفاظ تقع مرتبة على الورق إذا كانت المعاني مرتبة في ذهن الكاتب وأن اللسان يجري بها مرتبة إذا كانت معاني هذه الألفاظ منظمة في ذهن الخطيب ، فإذا رتبت المعاني ترتيبها الطبيعي حصلت على صورة خاصة في التأليف يرجع الحسن فيها إلى ترتيب المعاني لا إلى انتقاء الألفاظ) .

ثم يقول الدكتور إبراهيم سلامة (وكما انتقد عبد القاهر أبا هلال في الخروج بكلام الجاحظ عما قصد إليه ينتقد أيضا الآمدي وغيره ممن قالوا إن من أخذ معنى عارياً فكساه لفظا من عنده كان أحق به ...) .

وكذلك سلك الدكتور غنيمي هلال نفس المسلك في عَدّ عبد القاهر قد وازن بين اللفظ والمعنى من حيث القيمة ، فعبد القاهر (لم يُقر من رجحوا المعنى على اللفظ ... بل كان من أنصار الصياغة ، من حيث دلالة هذه الصياغة على جلاء الصورة الأدبية ...) .

ومن هذا يسأل الدكتور غنيمي هلال هل معنى ذلك أن عبد القاهر من أنصار اللفظ ؟ ثم يجيب عن ذلك يأبى عبد القاهر أن يكون من أنصار اللفظ على نحو ما رآه مَنْ سبقوه في جملتهم ، إذ إن هؤلاء يجهدون أنفسهم في الكشف عن حسن الكلام في حسن ألفاظه في ذاتها ... .

وكذلك نجد الدكتور أحمد مطلوب قد سار في نفس المسار في أنَّ عبد القاهر قد وازن بين قيمة كل من اللفظ والمعنى في إطار النص الأدبي إذ قال : (إن عبد القاهر في كل ما عرضه ليس من أنصار الألفاظ من حيث هي كلم مفردة ، وليس من أنصار المعاني التي هي أساس كل شيء ، بغض النظر عن تجانس الألفاظ وتلاحمها ، وإنما هو من أنصار الصياغة من حيث دلالة هذه الصياغة على جلاء الصورة الأدبية) .

ومن هذا تسقط كثير من الاعتراضات عليه ، وترد جميع التهم التي وجهت إليه ، فعبد القاهر ليس ممن يتأرجح بين اللفظ والمعنى ، بل هو ممن جمع بينهما وسوى بين خصائصهما وجعلهما شيئا واحداً يعتمد على الصياغة التي نضجت في بحوثه .

وكذلك نجد الدكتور احمد مطلوب يقول ليس بين الجاحظ وعبد القاهر خلاف فكلاهما يرى الصياغة الأدبية هي التي يتفاضل بها أصحاب الكلام ، ومما يدلنا على ذلك استدلاله بكلام الجاحظ على مذهبه في الصياغة وإيمانه به .

ويذكر الدكتور شكري عياد : (أن الخصومة حول اللفظ والمعنى ما كانت لتشتد هذه الشدة لو لم تغذها دوافع اعتقاديه أخرى سياسية واجتماعية).

ومن هنا يقر الدكتور عبد الحكيم راضي بقوله (مع إيماننا بانصراف الجاحظ فعلا إلى جانب اللفظ بمعنى التركيب والصياغة فإن دقة الموقف تقتضي منا سؤالا عما إذا كان الجاحظ قد بدأ بالإعلاء من شأن اللفظ فغض من شأن المعنى ، أو أنه بدأ بالابتعاد عن شأن المعنى فكان طبيعيا أن يتجه إلى تسليط الضوء على اللفظ) .

من خلال ما تقدم يمكن أن نستنتج أن الدكتور عبد الحكيم راضي قد ادرك في

دراسته لقضية اللفظ والمعنى أن المعنى مصطلح متعدد الدلالة ومتنوع الأبعاد كما أنه أدرك مدى سعة عناية الجاحظ وعنايته باللفظ إلى جانب أنه لا يهمل المعنى كل الإهمال ، كما أكد في معالجاته لهذه القضية قصور المصطلحات الدالة على هذين المفهومين « اللفظ والمعنى » ودلالتهما بما ترتب عليهما شيئا من الاضطراب والخلط في فهم مسائل النقد وقضياه خاصة ما يتعلق بقضية الشكل والمحتوى بين المحدثين والقدماء على السواء .

من خلال ذلك كله نجد أن الدكتور عبد الحكيم راضي قد عالج هذه القضية بجانبيها الخاص المتعلق بالمفاهيم والعام المتعلق بمشكلة المصطلح في التراث إذ أكد أن مشكلة اللفظ والمعنى لم تكن بلاغية فحسب أو حتى مشكلة لغوية وإنما كانت موضع عناية جهات كثيرة إلى جانب النحاة واللغويين كان هناك المفسرون والفقهاء والأصوليون من مختلف الفرق لذلك عبر وبشكل واضح على أن مفهوم اللفظ والمعنى قد يكون مضطربا لدى بعض الدارسين المحدثين .

وعلى سبيل المثال فهذا الباب الذي عقده ابن جني في الخصائص بعنوان « باب في الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني»، يقول الدكتور عبد الحكيم راضي أن (هذا الباب يحمل دفاعاً رائعاً وتوجيها سديداً لما قد يوحي به كلام الجاحظ من ميل إلى جانب اللفظ وهو أوقع من كل الاجتهادات التي تكبدها المحدثون لإقامة ما تصوروه من أود في تصريح الجاحظ ، إذ يرى ابن جني أن العناية باللفظ والتأنق فيه والمبالغة في إصلاحه هي قمة العناية بالمعنى والحرص عليه) .

وليس من شك في أن هذا التصور قد قدم الحل الأمثل لهذه المشكلة – في حالة تصور وجودها طبعا – وذلك بإزالة التنافي بين العناية باللفظ وتقدير قيمة المعنى ، وبين تقدير قيمة المعنى وضرورة العناية باللفظ . فأهمية المعنى تقتضي أن يعتنى باللفظ ، والعناية باللفظ هي مقتضى أهمية المعنى .

ولذلك يقول ابن جني(إن العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة والخطب أخرى ، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها ، فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدراً في نفوسها . فأول ذلك عنايتها بألفاظها ، فإنها لما كانت عنوان معانيها وطريقا إلى إظهار أغراضها ومراميها

أصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لها في السمع وأذهب بها في الدلالة على القصد ...) .

وهذا من شأنه لدى الدكتور عبد الحكيم راضي أن (يلغي الأثر المترتب على صيغة التفضيل للمعنى في حديث أبن جني « أقوى ، أكرم ، أفخم » إذ لا مكان للمفاضلة إلا عند الاضطرار إلى الاختيار او التفضيل ، وهو غير مطلوب ، لأننا بصدد طرفين يعضد كل منهما الآخر ، فأهمية المعنى تقتضي أن يعتنى باللفظ ، والعكس) .

وهكذا يجئ الخلاف بين ابن جني ومجموعة النقاد على مستويين :-

المستوى الأول عام يتعلق بموقف العرب عموماً من عنصري اللفظ والمعنى،إذ يرى ابن جني أنهم لم يغفلوا شأن المعاني ، وإنما وفوها حقها وأولوها عنايتهم ، متوسلين إلى ذلك بالعناية باللفظ والتأنق فيه .

أما المستوى الخاص فيتعلق بالأبيات الحائية التي وقفوا عليها وأجمعوا على أنها بعبارة ابن جني شريفة اللفظ مشروفة المعنى ، إذ رأى هو أن معناها لا يقل قيمة عن لفظها إن لم يتقدم عليه .

هذا الموقف حسب ما يقول الدكتور عبد الحكيم راضي من جانب ابن جني ونصوصه التي حملته إلينا لا (يقل أهميه عن نص الجاحظ الشهير ..، بل هو أهم من نص الجاحظ ، لأنه من ناحية لم يستوف حقه من التأمل والعناية ، ولأنه من ناحية أخرى يحمل التوجيه السديد لمراد نص الجاحظ ، ويعمل من ناحية ثالثة على تلافي بعض ما خلفه ظاهر كلام الجاحظ من آثار لم تكن في حسبانه ، ولأنه أخيراً يمثل اختيار عبد القاهر في محاولته لدحض شبهة القائلين بأن للفظ مزايا خاصة ينفرد بها وتطلق عليه بعيداً عن المعنى) .

ومن هنا كان وقوف عبد القاهر عند الأبيات نفسها مدافعا عن معناها منتهجا السبيل نفسه التي سلكها ابن جني معرجا على جوهر الأفكار التي وقف عندها .

وهنا يقول الدكتور عبد الحكيم راضي (جاءت النتيجة التي تكاد تصل إلى حد المفاجأة ، أعني ما لمحناه يقيناً من متابعة عبد القاهر لابن جني في رأيه في قيمة المعنى في الأبيات المشار إليها ، وهي المتابعة التي استدعت بدورها التنبيه إلى تأثر عبد القاهر في موقفه من عنصري اللفظ والمعنى عموما برأي ابن جني في بابه المشار إليه ... خاصة حين

يكرر أن البلاغيين كثيراً ما يتكلمون عن ميزات في اللفظ لا يمكن فهمها إلا إذا كان المقصود بها المعنى) .